المجتمع والدولة البربرية

أ- الأسرة والعائلة البربرية:

- كان البربر منذ العصور الحجرية يعيشون في جماعات أسرية غارقة في البداوة.
- في الأساس أسرة أبوية فالقوامة للرجل، والنسب له، ويتوارث العائلة الرجال.
- لكن المجتمع الطوارقي قائم على عائلات أمية منح فيها للمرأة حرية واسعة، هذا دفع قزال وغيره إلى القول بأنهم يمثلون فئة الجيتول، أسرة أمية.
- العلاقات الأسرية تبدأ بالزواج، يتم في سن الصغر، ويتم بطقوس دينية سحرية.
- تعدد الزوجات للرجال، ولا يعرف شيء عن تعدد الأزواج للمرأة (*polyandrie*)، لا يعرف شيء عن الامتناع من الزواج من الجماعات القبلية الأخرى (*exogamie*).
- الأسرة البربرية كانت واسعة العدد، يشهد لهذا التعدد زوجات مسينيسان وأبنائه.
- للرجال حق التبني لكن ليس خارج إطار العائلة، يتبنون أبناء إخوتهم وأخواتهم فقط.
- اتخذوا السبايا، لكنهن لم تكن معدودات في الزوجات، كما لم يكن أبناؤهن معدودون أبناء شرعيين.
- للرجال حق التطليق، وكان على أب المرأة إرجاع مهرها لزوجها كاملا.
- المستوى الاجتماعي للمرأة عند أكثرية البربر متدنيا للطبيعة الأبوية للأسرة، ولعبت دورا اجتماعيا في تمثلها الأدوار الدينية، ككاهنةوساحرة. اختصت بمعرفة المستقبل.
- رفض سالستيوس لنظامها الاجتماعي القائم على تعدد الزوجات، لما يجلبه من دونية للنساء، والنزعات بين أبنائهن، والذي كان سببا في إضعاف العائلة والجماعة.

ب- العشيرة والقبيلة البربرية:

- كانت العشائر أو القبائل مجموعة من العائلات المنتسبة لجد يجمعها في الاسم، وربما كان هذا الجد قد ارتقى عندها في بعض الأحيان لمصاف المعبودات المقدسة.
- اشتركت العشائر في الطابع الحياتي الذي كان يجمعها، إما بدوي أو حضري.
- اشتركت الملكية الجماعية لبعض الممتلكات الخاصة بالعشيرة من سلاح وغيره.
- لها شيخا أوقائدا يمثلها ويسوسها، وهو إما الابن الأكبر للعائلة الأكبر، أو أكبر رجل في العشيرة سنا، يتولى هذا قيادته الشورية، باستشارته لكبراء العشيرة.
- العشيرة مستقلة بذاتها، لها حق إقامة حدود على أبنائها وسياسة أحوالها، وحل نزاعاتها مع غيرها جماعيا، حيث كانت جماعة العشيرة كلها مسئولة عن فعال أفرادها.
- تتفرع إلى مجموعة من العشائر للخلافات العائلية أو لضيق أراضيها مع الوقت؛ بسبب كثافة أعدادها.
- عاشت في حرية تامة، تنتقل من موضع لأخر محتكة ببعضها، في حياة جوار مضطربة أحيانا لاشتراكها في المعطن والمرعى، أي في مجالها الحياتي الذي كان متقاربا.

ج- الحلف القبلي:

- اضطرتها طريقة عيشها البدوية المتنقلة المتنافسة على هذه المجالات الحياتية،عدم كفاية نواحيها لحياتها، للتجمع في شكل قبلي موسع؛ للذياد عن مجالها الحياتي ضد المنافسين، في أحلاف قبيلة.
- اتجه بعضها للاستقرار وامتهان الزراعة، وبقيت الأخرى على بداوتها المتنقلة.
- ظهرت فئتين عرفتا بأهل الوبر وأهل المدر. وتنازع كل في مجاله الحياتي، أهل المدر على المياه، و أهل الوبر على المرعى.
- أهل المدر أكثر عرضة لخطر أهل الوبر وهجماتهم المتكررة، فاضطرهم للتجمع في قرى حماية لأنفسهم، والدفاع عن مجالهم الحياتي
- تضطر الجماعة مع الوقت لوضع ضوابط (قوانين) تدير بها أمورها،غير مكتوبة، ويحتاج لإقامتهاوالسهر عليها لرجل يقوم بالأمر، فاختير منهم رجل يقوم بهذا الدور هو أشبه بصاحب المدينة.
- أما أهل الوبر، فقد ظهرت أحلافها القبلية القوية منذ الألف الثاني قبل الميلاد.

- القبائل التونسية اجتمعت على الزراعة الحبوبية بالدرجة الأولى مع المحافظة على رعيها (نصف بدوية)، واجتمعت القبائل النوميدية و المورية و الليبية على الطابع الرعوى.
- كان للأحلاف القبلية مجالس قبلية موسعة تضم لفيف مشايخ رؤوس القبائل المؤلفة للحلف، و قد كان هذا المجلس في أكثر أحواله مستغنيا عن قائد يسوسه.

- **د- مملكة الدولة القبيلة:**

- اضطرت حالات الحروب هذا الحلف القبلي لاختيار قائد عام يقوده فيها لمدة الحرب أو لمدة سنة، و مع الوقت اكتسب هذا القائد قردة على جمع الرجال حوله من الأتباع، ما جعله يتمنع عن التخلي عن منصبه، ويجمع حوله الأتباع ليتحول إلى أمير حقيقي.
- لا يفكك نظام الحلف القبلي، يبقى تعامله مع المجلس القبلي، إذ سيستمد منه سلطته الشرعية، مع الوقت يقدر على تحويل سلطته إلى نظام وراثي مسلم به، فينقلب الحلف من تجمع قبلي إلى إمارة إلى ملكية وراثية.
- ظهرت هذه الممالك منذ الألف الثاني ق.م.، إذ كانت قبائل الريبو الليبية تحت سلطة قيادة وراثية.
- ذكرت المصادر مع هؤلاء الملوك فئات من الأشراف قيادات في جيش الملك، قد مثلوا نوعا من الارستقراطية القبلية، من العائلات القبلية الكبرى المشكلة للحلف.
- لم يعرف لملوكها طابع ديني، إلا شخصية إيارنة أمير الحلف القبلي المدعو " لغواطن" القرن 6.ق.م.، عرف عنه أنه كاهن الإله "قورزيل".
- من خصائص هذه الأحلاف القبلية أنها كانت قصيرة العمر، مرتبط دوامها بدوام الحروب والمصالح؛ بعضها كان يدوم ويتحول إلى تجمع شبيه بالشعوب، خاصة تلك المشتركة في حيز جغرافي واحد، و المشتركة في لهجة واحدة.

- **هـ - نظم الممالك:**

- ناشئة عن القيادة العسكرية للملك، وراثية، فالملكية قضية عائلية قبلية، الملك عائد للذكر الأكبر في العائلة المالكة، شرط أن يكون من زواج شرعي. هذا النظام عرف استثناءات.
- حمل الملك البربري لقب إقليد، وبقي إلى العصر الإسلامي، على أنه كان يمنح أيضا لقادة ليسوا ملوكا. يضعون على رؤوسهم الحلقة الملكية،و استعملوا العصي الملكية (الصولجان) واللباس الأرجواني، كما تقيدوا بنظام ملوكي محدد.
- كان أساس الممالك البربرية مجموعة من المدن والأحلاف القبلية التي تدير نفسها بنفسها، خاصة تلك التي كانت تعود للمستوطنات البونية، التي ساست نفسها على المنوال القديم، بل وسمح للكثير منها ضرب عملتها البرونزية.
- يبدو أن المدن البربرية اقتبست هذه النظم؛ حازت حكما شبه ذاتي، و ضربت عملتها.
- أمدتنا النقشية المزدوجة اللغة (بونية-ليبيه) لمدينة دوقة العائدة لسنة 139 ق.م بأسماء الوظائف السياسية والألقاب الأرستقراطية لبعض وجهاء المدينة، إذ فيها ذكر الأقليد، وذكر لشخصين لقبا بـ " قادة المائة" وربما كانا رئيسي مجلس شيوخ المدينة. وأيضا" سبط الخمسين" ولعله صاحب شرطة المدينة. وذكرت نقائش أخرى بالخط البوني الجديد منصب " مزراح" والذي يعني لفظا الهيكل التنظيمي، وربما كان يمثل مجلس المدينة الشوري. إن كل هذا يدل على تنظيم سياسي وإداري محكم ذا طابع قرطاجي بوني.
- الذي يلحظ أن هذه المدن البونية-البربرية كان لها حكما ذاتيا موسعا على غرار حكم الأحلاف القبلية.
- كان هذا التجمع القبلي المدني للمملكة هش التماسك، لنزاعات قبائله، كما أنه لم تكن تخضع بسهوله للنظام الملكي وسيادته؛ باعتبار غلبة الطابع البدوي القبلي، وكان اختلاف اللهجات عنوانا آخر للضعف، لم يكن للديانة سلطة تشد من تماسك هذا النظام.
- وكانت الملوك في حاجة إلى المال لإدارة ممالكها، فاستخلصته من الضرائب المفروضة على الأهالي المزارعين من زراعتهم، و على القبائل البدوية من ماشيتهم، وعلى التجار من عشور تجارتهم، اضطر

الملوك للمتاجرة، لتحويل اموال الضرائب العينية الى نقدية، وكانت لهم أيضا أراضي زراعية يستغلونها في دعم ملكهم.

- ويرى قزال أن النظام الإداري للدولة لم يكن بذلك المحكم، إذ ينفي وجود وزراء يعينون الملك أو إداريون و كتاب يسهرون على تسيير شؤون المملكة، فيرى أن الدولة كانت مسيرة بتعيين.
- كان للملوك جيشا مؤلفا من فرقتين، من جهة فرقة من المقاتلين الدائمين، التي تشكل حرسهم الشخصي، و قوتهم الشرطية، و فرقة أخرى أكبر حجما تمثل الفرق القبلية والمدنية المجندة أثناء الحروب. و الفرقة الأولى كانت مؤلفة فيما يبدو من مقاتلي القبيلة التي ينتمي إليها الملك، حيث ستشكل شبه طبقة عسكرية متحكمة.
- أسس يوبا الأول فيلق عسكري على الطريقة الرومانية، وكانت فيالق دائمة. استعان بعضهم بالمرتزقة في جيشه، و قد ذكر لنا أن يوبا الأول قد أسس فيلقا من ألفي فارس اسباني و غالي كحرس شخصي له.
- الحقيقة الرئيسة التي تتمثل لنا هو أثر الطابع القبلي على هذا النظام، و الحقيقة الثانية هي أثر الحضارة القرطاجية في تلك النظم خاصة السياسية منها.

انتهى